في التجربة التربوية

# تجربة تبحث عن مدرس

## «بدايات مثقلة»

«بدأت مهنتي مقلداً كبار المدرسين وانتهيت طفلاً يشارك طلابه لعبهم وتعلمهم»

إشكالية أحسست بها مبكراً، لكنها لم تتوضح في ذهني لأعمل على صياغتها إلا بعد فترة من العمل في مجال التدريس، في لحظة ما سألت نفسي: أي مدرس أنا ؟ وعندها بدأت أفكر في مدى كفاءتي، وجذور هويتي كمدرس، وأبحث عن منابع أساليبي وطرائقي، فاكتشفت إشكالية من إشكاليات مهنة التدريس. كل المهن الأخرى يبدأ الأفراد العمل فيها دون «آلهة» أو مثال يحكم عملهم إلا مهنة التدريس، فمن يدخل مهنة التدريس يكون قد تعرض إلى جانب ما درسه وتدرب عليه، إلى إرث هائل من الخبرة التي عايشها في من درّسوه.

فكل مدرس يبدأ درسه الأول بمجموعة من المدرسين والأساتذة الذين علموه على مدى عقدين من الزمن، فعند دخوله غرفة الصف، تحتشد الوجوه وتنتصب الذكريات. أي بداية شائخة تلك؟ بداية مثقلة بخبرة عمرها عشرات السنين، خبرة تضم في طياتها عصوراً متناقضة، وترسبات متباينة، وأساليب ونظريات ذات مرجعيات متعددة. هناك ما درسه في الكتب، وهناك ما تعلمه من الحياة، وهنا مهنة يبدؤها اليوم بعد أن عايشها في غيره، عاش فيها على شكل الطرف الآخر، الطرف المتلقي، المكمل، الضد المقلد للمعلمين والمدرسين، الآن هو المدرس، ماذا يفعل؟ من أين يبدأ ؟ من أي مرجع ينطلق؟ فجأة يختار وجها من الوجوه التي تملأ الصف، يتلبسه، يتقنع به، ويمارس درسه الأول. من هنا كانت البداية.....

> كل مدرس يبدأ درسه الأول بمجموعة من المدرسين والأساتذة الذين علموه على مدى عقدين من الزمن، فعند دخوله غرفة الصف، تحتشد الوجوه وتنتصب الذكريات.

من الاحتماء إلى التمرد

[«لا تعطهم شيئاً، بل حررهم من شيء يحملونه..... نيتشة»]

وبعد التخلص من رهبة اللقاء الأول، وتجاوز عقدة البداية، تبدأ الذات تمردها، وبحثها عن حقيقتها، تحت شعار «إني مؤهل وقد درست أحدث النظريات على استخدام أسلوب النظم وأساليب التدريس، وتكنولوجيا التعليم، وفلسفاته المعاصرة»، في هذه المرحلة خرجت من التقليد إلى التجريب، لكن الاحتكام إلى ثورة

الشباب، والرغبة في التجديد، والانتماء الفج إلى «مبدأ الترحال والتيه»، ورفض مبدأ «الإقامة» أدخلني مرحلة من البحث والقراءة النهمة في مجالات علم النفس والفلسفة والنقد الأدبي لكي أحقق ما أسعى إليه: التحول إلى معلم بهوية خاصة، هوية عصرية تلائم العصر ومتطلباته، والطلاب أيضاً، وتساعدني في القيام بدور معلم يمارس تمرده في غرفة الصف، ينتقد المجتمع ويفكك آليات التخلف ودعائمه، ويصب على أذهان طلابه، أحدث الأفكار، ويشرح لهم ما كان يعتقد أنه فلسفة وعلم وفكر، ويطارد فيهم أيديولوجيا التخلف والقمع ليحررهم منها، مرحلة أجهدتني، أحمد الله على أنها لم تطل!

في المختبر الصغير مع ابنتي الصغيرة رسبت في كفاءتي كمدرس ومربٍّ بامتياز، لقد أخذت ما حاولت أن أعطيها، سفسطائية تمارس علم الكلام واللعب بالألفاظ، تبرر كل نزعاتها ومساوىء سلوكها بخيال جامح ولغة جزلة وهي في الرابعة من عمرها..

تعلمت من ابنتي وطلابي

الدروس ممتازة، والطلاب في أوج دافعيتهم وتركيزهم، يبذلون الجهد الكافي، ونتائجهم اليومية ممتازة، لكن هناك حلقة مفقودة، في الاختبار النصفي والنهائي تظهر مفاجآت. أفضل الطلبة يعجزون ويفشلون في الإجابة عن أسئلة كان من المفروض أن يجاب عليها، والحلقة المفقودة تبقى مفقودة، حتى جاءت طفلتي لتعلمني درساً قاسياً، كدت أخسرها بسبب أسلوبي في التدريس، حينها اكتشفت اني لم أجد نفسي كمدرس بعد، وأني أعرف عن التدريس، لكني لم أتمثله، وأني كنت أعرف طلابي من خلال «سقالات» غير حية وغير مباشرة، عرفتهم من خلال ورقة العمل، ورقة الاختبار ودفتر الواجبات والأنشطة، لكن لم أعش معهم، لم أعرف حقيقة جوهرهم وخصائص طفولتهم ومرحلة نمائهم، لقد نسيت طفولتي، وتسلطت بما أملك من معرفة على عقولهم، ألغيت أجسادهم وحواسهم، فرفضوا فلسفتي واستخفوا بأفكاري..... أعددت لابنتي برنامجاً تعليمياً منذ سنتها الثانية، كلمات وأضدادها، ومرادفاتها، معارف علمية، ومعلومات مبسطة، قصصاً، وأساطير وحكايات، أتدرج بها معها، تحفظ في ذاكرتها الصغيرة، تحفظ القصص وتعيدها، وتناقشني فيها أحياناً، بعد ذلك تتقدم في العمر ويتأجج الخيال لديها، تبدع القصص وتغير فيها، لديها ثروة لغوية هائلة، مقدرة عالية على النقاش والرد على الحجة بحجة، لدرجة أنها أخذت تشكو: أن عقلها أكبر من سنها... طفلة وحيدة بين أبوين مدرسين، أب متفرغ يمارس سلطة الكلام، ويعتقد أنه سوف يوفر على ابنته عشرات السنين، فكثيراً ما كان يقضم أصابعه ندماً، لكونه لم يقرأ، أو لم تتح له الظروف أن يقرأ «السير الشعبية، ملحمة ألف ليلة وليلة....إلخ» في سن مبكرة، لو قرأتها مبكراً لتغير الكثير، هذا ما كان يردده ويريد أن يعوضه في ابنته.....

بين الحرفة والاحتراف

[«اللهم أنقذنا من بحر الأسماء» ابن عربي]

في المختبر الصغير مع ابنتي الصغيرة رسبت في كفاءتي كمدرس ومربٍّ بامتياز، لقد أخذت ما حاولت أن أعطيها، سفسطائية تمارس علم الكلام واللعب بالألفاظ، تبرر كل نزعاتها ومساوىء سلوكها بخيال جامح ولغة جزلة وهي في الرابعة من عمرها، لكن لا تملك أية مهارات أدائية، وترفض الاندماج بالأطفال من جيلها وتعجز عن التفاهم معهم، وتكره الروضة، وتتثاقل في الذهاب إليها، كل ذلك كان مؤشراً يدفعني لتقويم أدائي بصفتي أباً ومربياً ومدرساً، وعندما بدأت أبحث عن الأسباب، وأعالج الإشكالات، ترافق ذلك زمنياً مع انتقال ابنتي من روضة قريتنا «وهي روضة مستجدة» إلى روضة قرية «دير غسانة» المجاورة لنا، ومنذ اليوم الأول أخذت البنت تتغير، نعم ففي صباح اليوم الأول، لاحظت أن المربية نزلت من سيارة الروضة، ونزلت درجات بيتنا، ونزلت إلى مستوى قامة ابنتي واحتضنتها من كتفيها وقالت لها صباح الخير بطريقة فيها الكثير من الدفء، لم يكن ذلك أكثر من حدث عابر، مع الأيام تحول إلى ملاحظة تستحق التمعن والدراسة، البنت تتغير، تنهض باكراً، تُقبل على تناول فطورها، وتعتمد على نفسها في تحضير حقيبتها وارتداء ملابسها، وتنتظر سيارة الروضة بتلهف، ومع أني مشغول في تحضير نفسي للذهاب إلى مدرستي، إلا أني أخذت أركز عليها وألاحظ التغيير، وعندما سألتها في المساء عن الروضة وكيفية التعلم فيها علمت شيئاً أثار فضولي ودهشتي: فالروضة مهيكلة بطريقة مغرية مع أني لم أزرها،

لكن وصفتها زوجتي لي، حيث نسقت معلمات الروضة لها عدة زيارات لكي تقضي يوماً كاملاً مع ابنتها، ومما سمعته فهمت أن الروضة عبارة عن ثلاث غرف وساحة مسقوفة، في الغرفة الأولى ألعاب مخصصة للتركيب والتحليل وأشكال هندسية للبناء وغير ذلك، وفي الثانية ألعاب يدوية وأشغال، سيارات وأدوات مطبخ، وغرفة نوم لطفل (بيبي) مقسمة على شكل زوايا متخصصة، وفي الثالثة طاولات وكراسيّ للرسم والتلوين والتشكيل بالمعجونة، وفي الساحة المسقوفة رمل وأدوات عمل وأراجيح وحيوانات طبيعية، طيور وزواحف وحيوانات مجسمة.... وأن الأطفال ثلاث مجموعات «شُعَب» بحسب العمر، لكل شعبة معلمة، وكل شعبة تمر يومياً على الأماكن الأربعة بشكل تتابعي.

لم يعد الأمر مجرد ملاحظات عابرة، لقد أصبح موقفاً للبحث والتفكير، للدراسة والتعمق، وأخذت أراقب وأندمج، أسمع وأناقش، ولاحظت توقد الطفلة وحيويتها خاصة في يومي الثلاثاء والخميس، نوم قبل العادة، استيقاظ مبكر، نشاط واشتعال، عرفت منها أن يوم الثلاثاء هو يوم للتنزه في جبال القرية وأزقتها وشوارعها، ويوم الخميس يوم مسرح دمى.....ملاحظة أخيرة في اليوم الذي قامت مدرِّسة الروضة بزيارة ابنتي «طفلتها» لتقضي معها شطراً من اليوم في البيت، ولدت ابنتي من جديد.....

ولكي أقسو على نفسي وتكتمل عملية النقد لا بد من الإشارة إلى أن ابنتي قد لحقت بي إلى الشارع وأخطأت في قطع الشارع ما أدى إلى إصابتها من قبل سيارة كسرت لها إحدى ساقيها، عندها حمَّلت نفسي جزءاً كبيراً من المسؤولية، وأدركت أهمية تدريب الحواس، أهمية التدريب العملي، أهمية المهارات الحركية.....عندها فقط نضجت.

شيخوخة مبكرة أم نضج متأخر؟!

«الجوهري، هو ما يمر عبر كارثة، أو من خلال حريق ليترك على الخامة أثر هذا العبور» دولوز.

محاور متعددة، وفواعل متباينة تعيد صياغة تجربتي، تجربةٍ تُحَوِّلني من «عارف» إلى معلم، من عارف متسلط إلى معلم يتعلم ويتشارك مع طلابه في لعبهم وتعلمهم، ولكن لا بد من إعطاء التجربة حقها بشكل أكثر دقة وأكثر عمقاً، حيث هناك عوامل أخرى ساهمت في إعادة تبلور هذه التجربة، فهناك عامل الزمن، ذلك العامل الذي مارس «التجوية والحت» على ذاكرتي، تلك الذاكرة التي فقدت توهجها الظاهر، فأسقطت العابر والدخيل والسطحي، أسقطت كل ما تعلمته حفظاً وإنشاءً، ولم يثبت فيها إلا ما هو أعمق، هذا قللَّ غروري فلم يعد بإمكاني استظهار ما حفظته من القصائد والمقولات والعبارات، ودفعني للتساؤل عن سر توهج وخلود ما بقي في الذاكرة، وسيبقى محفوراً وكأنه كتب بالنار، دفعني للتساؤل عن سبب بقاء الجوهري، وعن جدوى الزائل ما دام حتماً سيزول.

تعلمت من كتبي، ومن تجربتي، ولكن تعلمت من طلابي ومن ابنتي أكثر... لكن للزمن قانونه، وللواقع أيضاً همومه، تفرض نفسها كضغطٍ لا بد من مساحةٍ له على خارطة العملية التعليمية التعلمية، لا بد من مساحة له في المدرسة وفي الدرس، في التصميم والتنفيذ، في النشاطات والوسائل.

هذه خريطة لتجربة رغم تواضع محاولة الوصف، وما شابها من تبسيط واختصار ما جعلها شبه ممتلئة، لكن «اللوحة لا يمكن أن تكون ممتلئة كلياً، إلا إذا أبقت على ما يكفي من الفراغات لجعل الخيول تعدو فيها...» وذلك للخروج من حالة الوصف إلى وضعية التوصيف.

آلام مرحلة وإنجازات مدرسة

«كل ما نطلبه ليس سوى القليل كي نحمي أنفسنا من السديم»

الرعب، اللذة، الألم... الأضلاع الثلاثة لمثلث الرعب والخطر الذي نعيشه في جنون المجزرة التي ترتكب، وآلام الحصار وعذابات العنف، ولذة التحدي والمقاومة، هذه الحالة عبرت أسوار المدرسة، وكمنت في الداخل من كل صف، ابنة شهيد هنا وابنة أسير هناك، وأبناء من فقد مصدر رزقه وعجز عن دفع الرسوم المدرسية..... ونقطة إرهاب لجيش الاحتلال، تقابل المدرسة على بعد أقل من متر هوائي من سور الساحة، يروع جنودها الطلبة ويحاولون إفراغ

محاور متعددة، وفواعل متباينة تعيد صياغة تجربتي، تجربةٍ تُحَوِّلني من «عارف» إلى معلم، من عارف متسلط إلى معلم يتعلم ويتشارك مع طلابه في لعبهم وتعلمهم، ولكن لا بد من إعطاء التجربة حقها بشكل أكثر دقة وأكثر عمقاً

المعلمين والتشويش على العمل اليومي. هنا يكمن مصدر آخر من مصادر التحدي والرغبة في الإبداع، هنا تحولت الهيئة التدريسية ومدير المدرسة لفريق عمل، يناقش ويخطط ويتعاون لإنجاز المهام، وتبادل الخبرات، وتكامل الأدوار. مدرسة صغيرة الحجم، أنيقة الشكل، تتحدى بطلبتها المائة وعشرين طالباً وطالبة الموزعين على سبعة صفوف (1-7) أساسي وبمعلميها ومديرها، نقطة جيش الاحتلال المتمركز قبالتها، وترفض أوامره بإنزال علم فلسطين عن سطحها، هذا مظهر لتحدي شكل الإبداع التعلمي والتعليمي جوهره الأول، ذلك الجوهر الذي سأحاول تناوله بشكل سريع، أما التوقف المتعمق فيه فسأتركه لفرصة أخرى.

المعرفة، ومن المدرسة إلى الحياة، ومن القراءة إلى النشاط، هكذا تم نقل أولوية الاهتمام وبؤرة التركيز في الجهد التدريسي، والجهد التعليمي ليصبح المتعلم محور التدريس ومرآته في الوقت نفسه. ولبناء تصور حي عن الطلاب كان لا بد من مدّ الجسور مع البيت والأسرة، وتجاوز الجسور (والسقالات) الميتة باتجاه التفاعل الحي

مساحة أخرى؟.....ربما

«أنا لم أبدع أي أثر من آثاري، كل ما هنالك أنني تبنيتها فحسب.....»

من المحتوى الى العملية، ومن المادة إلى الطالب، ومن الذهن إلى الجسد، ومن المعلومة إلى المعرفة، ومن المدرسة إلى الحياة، ومن القراءة إلى النشاط، هكذا تم نقل أولوية الاهتمام وبؤرة التركيز في الجهد التدريسي، والجهد التعليمي ليصبح المتعلم محور التدريس ومرآته في الوقت نفسه.

ولبناء تصور حي عن الطلاب كان لا بد من مدّ الجسور مع البيت والأسرة، وتجاوز الجسور (والسقالات) الميتة باتجاه التفاعل الحي، ولذا لم يعد الاتصال مع أسر الطلاب يقتصر على دفتر الملاحظات والهاتف، بل تمت دعوة الأمهات ليقضين يوماً كاملاً مع أبنائهن، وتنظيم زيارات متبادلة بين المدرسة وأسر الطلاب ذوي الحاجات الخاصة، وكان لدخول الأمهات مجال التعاون مع المدرسة فاعلية واضحة أضيفت لدور مجلس أولياء الأمور «من الآباء» الذي لا يمكن إلا الاعتراف بدوره الريادي في توفير الدعم المادي والمعنوي للمدرسة، وفي التعاون لتفعيل الأنشطة وحل المشكلات. أما بشأن التغيرات في تصميم وتنفيذ العملية التعليمية، فرغم صعوبة التوصيف لطول الفترة الزمنية، وعمق التغيرات، وتشابك الإنجازات مع الزملاء، حيث لا يمكنني أن أدعي الامتلاك الكامل لما أحققه حتى في درس أقدمه داخل غرفة الصف، حيث لا بد من بصمات للزملاء فيه، زميل خطط ملصقًا أو آخر ساهم في رسم لوحة، أو أبدى رأياً في تطوير مشروع.

إشارات؟..... فقط

«عندما تتوهج فينا الحقيقة لا نتكلم إلا مجازاً»

دفتر للمطالعة والمذكرات الشخصية:

لتفعيل المطالعة، وتعميم الفائدة، وتعميق لذة الاكتشاف، تم توجيه الطلاب لتسجيل اسم ما يقرأ : الكتاب، المؤلف، أهم ما فيه، مناقشة ورأي شخصي. التجربة تنجح وتحقق إنجازات على مستوى تزايد المطالعة، وتحقق الجرأة في الاقتباس، والتحليل والنقد أيضاً، ولا يقف طموح الطلبة على حد التلخيص والمناقشة والنقد، ليدخل مجال الإبداع في كتابة تعبيرية، كتابة تمثل نوعاً من الحوار مع العالم، كتب أحد الطلاب في دفتره إجابة عن سؤال:- ماذا شكل دفتر المذكرات لك بعد هذه الفترة؟ من خلال دفتر مذكراتي، «أقمت حواري الأول مع العالم بجرأة ودون خوف أو خجل» وكتبت طالبة من دفتري تعلمت معنى أفعالي، ونظَّمَ لي تجاربي ووضَّحَ أفكاري، وكتب طالب آخر: «عرفت من خلاله أن لديَّ ما أقوله، لدي شيء يجعلني مختلفاً، ويمكنني التعبير عن هذا الاختلاف.....

سطح المدرسة يتحول لمعبد وثني

جغرافية فلسطين للصف السابع، مثلث إنجاز: بإدخال الوطن إلى غرفة الصف لدراسته والتعريف به، أغراني الموضوع ودفعني لقبول التحدي وتدريس المادة، وبما أن الهدف الأول انتصب أمامي: كيف أعلم جغرافية فلسطين لطلاب؟ لا لدراستها والتعريف بها، بل للانتماء إليها، لبنائها، لخلقها، وعندها، تمردت جغرافية فلسطين على غرفة الصف لتصعد إلى السطح، ليحول الطلبة سطح المدرسة لخريطة فلسطين مبنية من حجارة، حجارة فلسطينية ملونة بألوان العلم الفلسطيني،

خريطة يضاف لها يومياً صخور تحمل أسماء المدن الفلسطينية، يضاف لها صخور وأصداف، وأتربة ورمال، تبين أنواع الصخور، والتربة، ومجاري الأنهار وناتئ النباتات ومجسمات الحيوانات، لتتحول الخريطة ليس لحديقة جغرافية بل لوطن حقيقي، وطن مثّل للطلاب ولي نوعاً من العشق، وطن لم أعرفه أو أحبه قبل ذلك بمثل هذا الحب والمعرفة، لحظتها اكتشفت سر العبادة الوثنية، فهمت ما يكنه المرء من عشق وتقديس لما يخلقه بعقله ويده، اكتشفت عمق العلاقة بين الأرض والإنسان، ففي حديقة الجغرافيا تحول الوطن لا لدرس يُقرأ أو موضوع يُفهم، بل شيئاً يبدع ويعاد خلقه، وطن يتجسد بحدوده وتضاريسه، بترابه وصخوره، ونباتاته، وطن بعاديته وبخصوصيته، وبمشكلاته التي مثلت تحدياً آخر عكف الطلاب على إبداع الحلول له : فتم تشكيل لجنة مشروعات، توزيع المشروعات على مجموعات الطلاب/ ويتقدم لها الطلاب لوضع تصور عن مشروع ما، تدرسه اللجنة وتقرر بالتعاون مع المعلم، جدواه وإمكانية تنفيذه. جاء الإنتاج أكبر من التوقعات: مشروعات مختلفة وبأشكال مختلفة، مشروعات تجسد مشكلات الزراعة، والماء والطاقة في فلسطين، وتقترح لها بعض الحلول، سأذكر بعض الأمثلة للاستفادة منها: مشروع يوضح مشكلة المياه ويقترح حلولاً لها على شكل كرتونة تم تقسيمها على شكل مزرعة، وحقول مزروعة، ومنطقة مسيجة لتربية الحيوانات ومنزل مصمم بالكرتون يوضع عليها، وتوضع بجانبه مجموعة من الخزانات لجمع ماء المطر عن سطحه للاستفادة منه، وبئر ارتوازية أخرى عليها مضخة، وبركة للمياه العادمة وعليها محطة معالجة، وأكثر ما أدهشني وكان خارج توقعاتي هو أن تتمكن الطالبة صاحبة المشروع من إحضار البحر إلى غرفة الصف، لقد حضر البحر معها لتبنى عليه محطة لتحلية المياه، لقد أحضرته في كيس بلاستيك شفاف مليء بالماء مغلق بإحكام، فكان الماء يتحرك داخله، كبحرٍ تداعب أمواجه رمال الشاطىء. بحرٍ فرشته على أرض المشروع وأحاطته بالرمال ومدت منه أنابيب إلى محطة التحلية والتقطير، وأنظمة ريّ طرق حديثة واقتصادية كالتنقيط والرشاشات، مستخدمة مصاصات العصير وأغطية العلب. مشروعات أخرى تجسد المشكلات التي يعاني منها الغطاء النباتي، أجمل ما في المشروع كان طريقة تجسيد عملية الزحف العمراني، حيث تم وضع عشرات المكعبات التي تمثل منازل وبيوتاً، ما جعلها تغطي مساحة الأرضية الخضراء، ثم تم جمعها ليركب منها برجان سكنيان، للمحافظة على المساحة الخضراء، فكان الحل في البناء الرأسي، وكذلك تم تمثيل الرعي الجائر وقطع الأشجار، وانجراف التربة....

ولكي تتكامل فلسطين وتكتمل، أدخلت إلى مجال الكتابة الإبداعية، فأبدع الطلاب في وصفها، ومقارنتها بغيرها، فتم وضعها في سياقات جديدة وإعادة وصفها ودراستها في ضوء الأوضاع الجديدة، إزاحتها شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً....

وتم ربط مناخ فلسطين بالذهن الشعبي لسكانها، وجمع الطلاب أمثالاً وحكايات وأغاني شعبية، تلخص حكمة التاريخ الشعبي في قراءته للمناخ، قراءة لا تختلف مع معطيات علم المناخ ومعرفته، بالعكس تفوقها دقة وبساطة فشهر تموز يعد أكثر شهور السنة ارتفاعاً في درجات الحرارة. أضاف لها الطلبة : «في تموز بتغلي المية في الكوز»..... وعلى هذا الشكل جمع الطلاب ما مكنهم مما هو أبعد من المعرفة والفهم، مثّل نوعاً من العشق والانتماء وأثمر مجلة حائط.

في الرسم توجد الحقيقة

«لقد تعلمت أن إدراك كل حواسي لموقف ما أكثر صدقاً من عقلي.....»

وللرسم وظائف وأدوار ومجالات، يضيق الحيز عن وصفها، لكن لا بد من إعطائه جزءاً من الأهمية، فبواسطة الرسم شخّص الطلاب المفاهيم المجردة، وأعطوها الحياة، حاوروها واستنطقوها، فتداعت وكسرت صمتها، وفي الرسم التشخيصي تحولت الكثافة السكانية، ومعدل الخصوبة، والديمقراطية، والعنف إلى دجاجة تفرخ بيوضها على شكل أزمات وإشكالات أو إيجابيات، تتحول إلى شجرة، أو امرأة تحمل رايات أو ترزح تحت ثقل السيطرة والعادات، وفي الرسم التمثيلي تتحول العلاقة:- السرعة X الزمن إلى

> لعلنا، بوعي منا أو دون وعي، نختلق مسافة مصطنعة تقصي المتعلم عن مشاعره، وتفترض فيه أن يكون «طالباً» جاهزاً لكل ما تقتضيه عملية «التعلم».

كأس عصير كبير يمثل المسافة، يتم صبه في كأسين أصغر حجماً يمثلان الزمن والسرعة، أو تتحول المسافة إلى تفاحة تقسم بسكين الزمن لتولد السرعة من عملية القسمة.

وفي الرسم التعبيري: رسم أحد طلاب الصف السادس في مناقشة «أُمَّاً تأخذ رأي ابنتها ابنة 14 سنة في موضوع خطبتها للزواج»، وتفسر صمت ابنتها بالرضى طبقاً للقول الشائع «السكوت من علامات الرضى». رسم الطالب رجلاً يحمل منشاراً ويسأل الشجرة: هل تسمحي لي بأن أقطعك، ويضيف السكوت من علامات الرضى، وعندما جمعنا الرسومات لإلصاقها على لوحة جدارية، كنت أناقش كلاً منهم في معاني ودلالات الرسم، وقفت أمام ما رسم هذا الطالب صامتاً والطلاب يحيطون بي عند الطاولة، ووجدت نفسي أكتب تحتها بخط كبير وواضح: «لا تتكلم ولكنها تتألم» ليدهشني ثانية ويقرأ ما كتبت مرتين بصوت مرتفع، ثم يضيف بطريقة عفوية: حلوة يا أستاذ، حلوة..... وكأنه يقول أحسنت، وأسعدني تعزيزه لي وكان أفضل وأجمل تقويم تربوي حصلت عليه عبر سنوات عملي كمدرس، وهذا أثارَ في ذهني ضرورة قلب التقويم التربوي التنازلي المؤسسي واستبداله بتقويم تصاعدي فاعل وحر. ليأخذ الطلاب حقهم في تقويم أداء معلميهم وهذا أكثر عدلاً وصدقاً، ويمثل حقاً للمعلم والطالب، فالطلاب هم الأقدر والأحوج، والمعلم يستحق ذلك ؛ فطلابه أفضل وأقدر من غيرهم على تقدير جهده وإنجازاته. وليعطي المعلم حقه أيضاً في تقويم الإدارة المدرسية، والإشراف التربوي، ليعطي حقه في مؤسسة ثقافية ومنبر حر.

> التفكير بالعقل، والتفكير بالشعور، قد يكونان طريقتين متمايزتين في إنتاج المعرفة الإنسانية إلا أنهما متفاعلتان تمامًا. إن هذا الكلام يتيح لنا أن نقول إن المعرفة لا يتم إنتاجها عقليًا فقط بل يتم إنتاجها شعوريًا أيضًا

تذويت المعرفة وعقلنة الفعل

«هل كتب على الطفل، لأنه طالب أن ينصب على مسامعه سلوك التعليم؟»

لا بد من تصميم الموقف الصفي من خلال الجمع الخلاق بين الهندسة والتنظيم من جهة والفضاء الممتلىء بالحرية من جهة أخرى، فلم يعد من العلم أو العدل، جعل الطالب هدفاً توجه له سهام المعرفة، أو أن يكون سهماً يقذف في اتجاهات تختار له، وحالُ المعلم يقول: أيها السهم إنك لست إلا أواني وأنا الذي أقذفك حيث أشاء وكيفما أشاء، ولذا كان لا بد من استبدال طريقة التلقين والحشو، باستراتيجية الحوار والاستدلال والبحث ليتحول الصف إلى بيئة حقيقية مصغرة، يمارس الطالب فيها الملاحظة، والتصنيف والتجميع والتفكيك والتركيب، والعنونة، والاستدلال وصولاً إلى تعميمات ذات معنى شخصي، يتم تأطيرها في ذهنه ضمن أطر معرفية، ومفاهيم عملياتية ذهنية وعملياتية حياتية. وفي هذا المجال قام الطلاب بنشاطات تعلمية حققت بعض الإيجابيات، ومنها ما يمكن تسميته «المحاكمات التاريخية والأدبية» محاكمة لشخصية أو حدث تاريخي أو أدبي من خلال مجموعة تمثل الإدعاء، ومجموعة تمثل الدفاع، ولجنة قضاة تصدر أحكاماً وتعميمات. ولردم الهوة بين المعرفة والحياة، «كان لا بد من أن نربط ما نعرفه بما نتعلمه، وما نتعلمه بما نفعله» لذا أصبح الدرس بمثابة جسر يتم على سطحه تصادم وتجابُه ما نعرفه بما نتعلمه فالطلاب يلاحظون ما يستهلك في بيوتهم من منتجات صناعية، يسجلونها ويحددون مصدرها ويصنفونها الى منتج وطني ومنتج مستورد، وبعد أسبوع يتوصلون إلى نتائج وتعميمات فتدخل إلى بنائهم الذهني خبراتٍ ومعارفَ جديدة توصلوا إليها، فيحولون أطرهم المعرفية بحيث تتمكن من دمج الخبرة الجديدة. دون حاجة إلى التنظير بأفكار مجردة عن المقاطعة للبضائع الأجنبية، وأهمية حماية المنتج الوطني.....الخ.

والطالب ليس متلقياً، بل منتج وفاعل يحتاج إلى بعض التوجيه فقط، فقد قام الطلاب بجمع مخلفات البيت العضوية، وتكديسها في صناديق بلاستيكية ترش بالماء وتغطى بالتراب، لتستخدم في تسميد حديقة البيت، وتعاونوا في تنظيف ساحات آبار البلدة وترميم قنواتها لتُملأ بمياه الأمطار.

أنتهي بسؤال البداية: هل سأتمكن في يومٍ ما من أن أعطي درساً نموذجياً وأشعر براحة وطمأنينة الاكتمال، أتمنى أن لا.....

م. ر: مدرس

مدرسة أم صفا الأساسية المختلطة – رام الله.